بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام فى أكمل صورها على سيدنا ومولانا النبى العربى الأمى محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى ختم الله به المرسلين ، وجعله رحمة للعالمين ، وهدى به إلى الحق وإلى صراط مستقيم – صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور .

ورضى الله أحسن الرضا عن آله الأطهار الأخيار ، وعن صحبه الكرام الأبرار ، وعمن والاهم بإحسان إلى يوم الدين – أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون .

وبعد فعندما بدأت الكتابة عن أهل البيت كانت مهمتى سهلة وصعبة وتأتى السهولة عن بعض الشخصيات الكريمة من أهل البيت لكثرة مصادرها ، وصعبة فى الكتابة عن بعضها الآخر لقلة ما كتب عنه وفى مقدمتهم سيدى أمير المؤمنين أبى محمد الحسن السبط رضى الله عنه ، وقد كنت أنهيب دراسة هذه الشخصية فالذين كتبوا عنه وهم قليل حاولوا أن يشوهوا وجه الحق ويفسدوا حرية البحث ، واستعنت بالله وبدأت أبحث وأنقب ووجدت الطريق أمامى ليس ممهداً ، فالمكتبة العربية ينقصها المراجع عن الإمام

الحسن ، وعلى العكس هى زاخرة بالمؤلفات عن الشهيد الإمام الحسين رضى الله عنه ، ولست أدرى السبب الذى من أجله أحجم الكثير عن الكتابة عن هذه الشخصية الفذة ، ففيها نواح كثيرة جديرة بالبحث والدراسة ؛ فهو بلا شك رجل السلام الأول فقد خاف الله فى دماء المسلمين فلم يرد أن يلى أمر أمة محمد وتراق فى سبيل ذلك محجمة دم ، كما قال حين تنازل عن الخلافة لمعاوية على الرّغم من معارضة أهله وأنصاره ، ومرة أخرى تجده ينشد السلام حينما يدرأ الحدود بالشبهات حين شكا إلى الإمام الحسين السم الذى شربه غدراً ومات به ، فسأله الإمام الحسين عمن سقاه فقال الإمام الحسن : لتقتله ، فقال نعم ، فقال ما أنا بمخبرك ، إن يكن صاحبي الذى أظن فالله أشد نقمة ، وإلا فما أحب أن يقتل بى برىء .

وقد يظن بعض الناس أنه خالف أباه فجنح للسلم مع أن الإمام عليًّا كان أيضاً رجل سلام ، وإذا كانت الظروف قد اضطرته إلى الحرب فقد كان مجتهداً ، وكذلك كان الإمام الحسن فى سلمه مجتهداً .

وقد استمر حريصاً على السلام حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، فأوصى أخاه الإمام الحسين أن يدفنه إلى جانب جده المصطفى صلى الله عليه وسلم فإن أبوا فلا يقاتلهم بل يدفنه إلى جانب أمه السيدة الزهراء .

وقد لقبه الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيد وقال عليه الصلاة والسلام : (إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين) .

وعند تتبعى لتاريخ الإمام الحسن وجدت أن العناية الربانية قد هيأته

لأن يكون إماماً كاملا ، فوعى فى طفولته الباكرة أحاديث عن جده صلى الله عليه وسلم أخذها عنه الرواة ، ثم لازم والده الإمام علياً وغرف من بحره الزاخر حتى أصبح معلماً للناس وللناشئة من أهل البيت ، فكان الإمام بحق هم والأئمة من بعده .

وهو العابد الذى حج بيت الله عشرين مرة ماشياً على قدميه وإبله تقاد من بين يديه ويقول تواضعاً لله إنى أستحى أن أذهب إلى بيت الله الحرام راكباً .

أما عن تعدد الزوجات وقد صال فيها وجال بعض الجهال ، وقد نسوا أن زمن الإمام غير زماننا ومعاييره غير معاييرنا ، فقد كان تعدد الزوجات فى أيام الإمام الحسن مستحسناً لربط العصبيات والإكثار من الذرارى المقاتلين ، ولئن كان التعدد مستحباً لغير أهل البيت فقد كان لهم مستحباً ، لأن سلالة النبى صلى الله عليه وسلم أمان ورحمة لأهل الأرض ، وزواجه الكثير دليل عظمته الروحية فى الناس .

وقد كان الإمام حلو الحديث عف اللسان – لا تصدر عنه الكلمات النابية ، وكان يأخذ الأمور بالروية فلا يذهب عنه الرشد بغضب أو تسرع ، كل ذلك فى هيبة ووقار يحسب حسابها صاحب السلطان فى عرشه ، حتى لقد قال معاوية : (والله ما رأيته جالساً عندى إلا خفت مقامه) .

وكان الإمام مواسياً المنكوب فى ساعة العسرة وإن تباعد عنه أحباؤه فقد خرج مع أبيه وأخيه يودع الصحابى الجليل أبا ذر – رضى الله عنه – وهو خارج إلى الربذة مما أثر فى نفسه ، فخاطبهم قائلا : (رحمكم الله أهل

بيت النبوة ما لى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم - إذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم) .

أيها السبط الكريم :

إن ما وقع لكم من الدنيا وأهلها يحير الألباب ، لكنا أخذنا عنكم الرضا بالمقدور وإن كان مرًّا ، فذلك من علامات اليقين بالله ، وأخذنا عنكم أن أفعال الله سبحانه وتعالى كلها حسنة وإن خالفت هوانا لأن حكمة الله دقت فخفيت عن العقول هذا فى باطن الأمر ، أما فى ظاهره فقد علل ابن أخيك الإمام على زين العابدين ما وقع لكم خير تعليل حين قال :

عتبت على الدنيا فقلت إلى متى ... أكابد همًّا بؤسه ليس ينجلى

أكل شريف من على نجاره ... حرام عليه العيش غير محلل

فقالت نعم يابن الحسين رميتكم ... بسهمى عناد منذ طلقنى على

فأشار إلى ما كان قاله أبوك أمير المؤمنين على كرم الله وجهه وهو يخاطب الدنيا : (إليك عنى يا دنيا - ألىّ تعرضت - أم إلىّ تشوقت - هيهات غرى غيرى لقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها) .

وقد نظرت إلى الإمام الحسن - على قصر عهده فى خلافته - فوجدته رجل إدارة وسياسة ، فقد بلغ الدقة فى تصريف الأمور فإذا بالصلح الذى حاكه على معاوية أداته الجبارة للقضاء على خصومه فى التاريخ دون أن يكون ثمة أية مساومة على بيعة أو خلافة أو على مال ، وإذا كل خطوات الإمام الحسن وكل إيجاب أو سلب فى سياسته مخفقاً أو منتصراً آية من

آيات عظمته التى جهلها الناس وظلمها المؤرخون .

ولقد عنيت أشد العناية بموضوع صلح الإمام الحسن مع معاوية لأنه فى اعتقادى موضوع هام يستحق البحث والعناية ، ويخطئ من يظن أن الإمام الحسن هو الذى طلب الصلح ، بل الحقيقة أن معاوية هو الذى بدأ المحاولة ، وقد أبرز هذه الحقيقة الإمام الحسن فى خطابه الذى ألقاه فى المدائن فقال : « ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة . . . » وزيادة على أن معاوية هو الذى فكر ودبر وطلب الصلح فإن وسائله التى بها فكر كانت من النوع المحبوك الصنع ، فباع القائد فى جبهة العراق ضميره لمعاوية بالمال ، وباع معه أكثر الرؤساء ضمائرهم ، وأصبحت معسكرات الإمام الحسن تعج بالشائعات التى راحت تمطر أنصاره بوابل من الويل والثبور والمخاوف ، وكما يقال : (إذا أصبح الحسن نفسه لا يتسنى له تنفيذ أوامره فى جيشه بما فعلته الأراجيف من حوله بل لا يستطيع الظهور بشخصه أمام الكثرة من جنوده إلا ليغتال) فهل من سبيل إلا الصلح ؟

على أن نصوص معاهدة الصلح التى أبرمت بينهما تدل دلالة قاطعة على بعد نظر الإمام الحسن وحنكته السياسية ، ومنذ القدم تقاس الشخصيات التاريخية البارزة من مواقفهم من شروطهم التى يأخذونها على أنفسهم باختيارهم .

وكون معاوية لم يف بوعده بل عبس وتولى وندم على ما أعطى فهذا هو معدنه وهذه هى طريقته .

أراد الإمام الحسن بالصلح أن يخلى لمعاوية الميدان ويسلم له الأمر ويرفع

الخصومة حتى يظهر ما يبطن ويعلن ، ويرفع عن وجهه ذلك الغشاء الصفيق ويعرف الناس حقيقة أمره وكامن سره وهكذا فعل .

وفور إبرام الصلح صعد المنبر فى جمع غفير من المسلمين وقال : « إنى ماقاتلتكم لتصدموا ولا لتصلوا وإنما قاتلتكم لأتآمر عليكم وقد أعطيت الحسن شروطاً كلها تحت قدمى » .

وهذا القول يدل على نية معاوية فى خرق شروط الصلح كما سترى ذلك تفصيلا ، كذلك لولا الصلح ما قتل حجر بن عدى وغيره من خيار الصحابة والتابعين ، كذلك قيل إنه لولا الصلح ما قتل معاوية الصحابى عمرو بن الحمق وحمل رأسه إلى الشام وهو أول رأس حمل فى الإسلام ، ولولا الصلح لما سقى معاوية الحسن السم على يد جعدة بنت الأشعث ، ولولا الصلح لما أجبر معاوية البقية الصالحة من أولاد المهاجرين والأنصار على أخذ البيعة ليزيد ، ولننظر إلى ما صنعه الحسن بمعاوية فى صلحه وكيف أن هذا الصلح هد جميع مساعيه حتى ظهر الحق وزهق الباطل وخسر هنالك المبطلون . فكان الصلح فى تلك الظروف هو الواجب والمتعين على الحسن ، كما أن الثورة على يزيد فى تلك الظروف كانت الواجب على أخيه الحسين ، كل ذلك للتفاوت بين الزمانين والاختلاف بين الرجلين .

وقد كان صلح الحسن الذى فضح معاوية وشهادة الحسين التى قضت على يزيد هما السبب فى انقضاء الدولة الأموية .

لقد وقف السبطان بما لهما من قوة وسلطان سداً منيعاً دون ذلك البنيان

وما تم لهما ما أرادا من حفظ شريعة جدهما إلا بالتضحية العظمى بأنفسهم وأموالهم ورجالهم وأطفالهم ، وبكل ما فى دنيا النعمة والنعيم بذلوا كل ذلك فى سبيل الله ولحفظ دين الله .

ولولا نصيحة الإمام الحسن الذى تجرع السم من معاوية والإمام الحسين الذى ضرب المثل الأعلى فى التضحية ، فاستقبل السيوف والرماح والسهام والذى جعل صدره ورأسه وقاية عن المعاول ، لولا هذه التضحيات لأصبح دين الإسلام أسطورة من الأساطير .

وأخيراً نحمد الله ونشكر فضله أن جعلنا من المحبين لأهل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنهم شجرة النبوة ومهبط الرسالة ومنبع الرحمة ومعدن العلم وينابيع الحكمة ، فيهم كرائم القرآن وهم كنوز الرحمن إن نطقوا صدقاً وإن صمتوا لم يسبقوا ، ناصرهم ومحبهم يرجو رضوان الله تعالى ويستمطر رحمته ونفحاته ، وعدوهم ومبغضهم يستقبل نقمة الله تعالى ، بهم اهتدينا إلى الصراط المستقيم وعن طريقهم عرفنا الدين الحق القويم ، بهم خرجنا من الظلمات إلى النور وفى صحبتهم نتمتع إن شاء الله تعالى بقصور الجنة ونعيمها ، هم أساس الدين وعماد اليقين ، فعن عبد الله بن الحسن المثنى عن أبيه الحسن السبط رضى الله تعالى عنهم جميعاً قال : خطب جدى المصطفى صلى الله عليه وسلم يوماً — فقال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه (معاشر الناس إنى أدعى فأجيب ، وإنى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى أهل بيتى إن تمسكتم بهما لن تضلوا ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض فتعلموا منهم ولا

تعلموهم فإنهم أعلم منكم ، ولا تخلو الأرض ولو خلت لانشاخت بأهلها .

ثم قال – اللهم إنك لاتخلى الأرض من حجة على خلقك لئلا تبطل حجتك ولا تضل أولياءك بعد إذ هديتهم أولئك الأقلون عدداً والأعظمون قدراً عند الله عز وجل ، ولقد دعوت الله تبارك وتعالى أن يجعل العلم والحكمة فى عقبى وعقب عقبى وفى زرعى وزرع زرعى إلى يوم القيامة فاستجيب لى)

والحمد لله رب العالمين

توفيق أبو علم